سارة

وثنية الأخلاق ، تعبد جسدها ونوازع جسدها ، وتضع القلب قبل العقل ، وتهيم بأوروبا فنا وسلوكا وأسلوب حياة ، تعبد الرجل وترى مكانها فى حضنه لا أمامه ، ولا وراءه ، وتجعل من نفسها حربا على كل امرأة وعشيقة لكل رجل . أنثى متعصبة ، تجد فى أنوثتها شرفا أى شرف ، ولا تقبل أن تستبدل بها شرف التحرر ، ولا مكان الثائرات ، فلو سئلت أن تكون رجلا ما قبلت ، ولو ثارت فعلى الرجال الذين يسمعون لهراء المتحررات ! .

كذوب ، مشغولة بالعشق ، مولعة بالحرب تعرف متى تذرف الدمع ، ومتى تحمل السلاح ، هدفها الواحد أن تعبر عن ذاتها وتفسح لفيض الأنوثة فيها سبل الانطلاق .

عاصية لا عهد لها ، ولا ضمير ، فهذان بضاعة من يرضى بقضبان الأخلاق . أما هى فخارج النطاق فلا توصف بأنها منافية للخلق ، ولا بأنها عامرة به بل هى — فى بساطة — فوق سلطان الأخلاق !

هى المرأة الفائضة الحيوية التى كانت دائما شغل الرجال ، تجر العاشق من أوتار قلبه ، وتسحب العاقل من جذور تفكيره ، تغرر بالأحمق كما تخدع الحكيم ، وتقود الاثنين ، وتقود نفسها الى مصير لا تعلمه ، ولا تبالى ما يكون .

تلك هى سارة العقاد . وهى أيضا « كانديدا » و « آن هوايتفيلد » و « سالومى » و « كليوباترا » وكل غانية من غوانى الأدب والتاريخ باعت دنياها بالحب ، وخرجت من الصفقة وهى تقول : ما أغلى البضاعة ، وما أرخص الثمن !

حواء الخالدة هذه تحب رجلا يقال له « همام » . تحبه بطريقتها الخاصة . فلا يعدو الأمر أنها وافقت — يوما — على أن تضمه الى مجموعة عشاقها ، وان شئت فالى « حريمها » من الرجال .. !

أما هو فيحبها بعقله أكثر مما يحبها بقلبه ، وان كان يجد فى وليمة جسدها ما يرطب جفاف الحياة العقلية الصارمة التى يحياها ، ويريحه من علاقته بها انها لا تناطحه أو تطاوله فيما يرى فيه الفخر كل الفخر له ، الا وهو العقل

الذكى ، اليقظ المتشق السلاح . النزاع أبدا الى التحليل والتفسير ، والتقييم !

وخلاصة موقفهما أنهما جسد حى وروح دفاقة (سارة) وعقل فتى ، وروح فكهة ، سمحة (همام) ، وأن علاقة ما تقوم بينهما لها شكل الحب ولكنه الحب المهذب المتحضر الذى نجده فى الصالونات الأدبية ، أو فى بلاط الملوك ، أو فى قصص « بوكاشيو » أو « ألف ليلة » . الحب الذى يسمع المحب خلاله بأن حبيبته مشغولة بآخر فلا ينهار أو يجرى الى السلاح ، بل يلجأ الى الخطة ، والمؤامرة ، فيقيم الرقيب ، ويسعى الى اقتناص الأخبار . الحب الذى يحلل فيه المحب سلوك فتاته ، فيقول ان من الجائز انها ذهبت تعود مريضا من أطفال الصديقات ، ومن الجائز أيضا انها قصدت مخدعا من مخادع الغواية ، وان الاحتمالين متساويان فى درجة الترجيح ، لا يتغلب أحدهما على الآخر الا على سبيل التخمين والتقدير .

وحب هذا شأنه يفسح المجال للعب والفكاهة والنزال الفكرى المتوقد ، الذى يسمع فيه صليل سيوف العقل ، ويتطاير له الشرر ، وتسطع فيه الأفكار والأرواح ولكنه

أبدا لا ينتج العاطفة العميقة الطاغية التى تحرق أصحابها وتحيلهم رمادا ، أو تتركهم حطاما لا يقوى على شىء .

ومن هنا يأخذ الحب فى « سارة » شكل الطراد الذى يجرى بين الرجل المتحضر والمرأة المتحضرة فى كل مكان وفى كل عصر — فى بغداد العصر العباسى ، وفى الأندلس وعلى عهد ملوك فرنسا وأيام الملك تشارلز الثانى فى انجلترا ، حين كان الدخول فى علاقات غرامية بين الجنسين لونا من الترف ودليلا على كرم المحتد ، ونوعا من المغامرة العقلية والجسمية ، وتعبيرا عن الرغبة فى التغيير والتجريب ، بعيدا عن مواضعات الأخلاق ، بل وتحديا لهذه المواضعات نفسها .

اذ ذاك كان الحب يتحول الى لعبة حب — مبارزة سيوف يلتحم فيها عقلان وقلبان أو لعبة شطرنج تسقط فيها القلاع والطوابى العاطفية — ولكنها لا تسقط الا لتعود الى مكانها فيستأنف اللعب من جديد . لا حسرة ، ولا دموع ، بل كثير من الذكاء ، وكثير من البراعة وشىء غير قليل من الفكاهة الصافية حينا ، اللاذعة حينا آخر .

من أجل هذا لا نجد قصة نامية متطورة فى « سارة »

تسندها عواطف مشبوبة ، وشخصيات قوية ، ولحظات كشف مفاجئة ، وأفكار وآراء مترجمة الى مواقف وتصرفات ، بل نجد موقفا واحدا يواجه فيه الجسد الحى ، العقل الصاحى ، ونسمع تعليقات هذا العقل المتصلة على عملية كبرى يجريها على مائدة التشريح ، فكأن الحب « حالة » وكأن هذه الحالة قد ثبتت بالدبابيس وسلطت عليها أضواء طبية لا ظلال لها ، تسطع تحتها المكتشفات والحقائق دون عائق ، فتسمح بمراقبة تصرفات «موضوع» العملية — وهو هنا المرأة الفائضة الحيوية ، قد أمسكت بها يد التحليل والتدقيق وأخذت تشرح لنا ، نحن جمهور القراء ما غمض وما ظهر من سلوكها ، وأفكارها ودقائق حياتها .

ويزيد من احساسنا بهذا التجريد الذى يتعرض له موضوع « سارة » ان قصة الطراد الذى يدور بين البطلين تدور فيما يكاد يكون عزلة تامة عن المجتمع الذى تجرى فيه حوادث القصة . فلا تكاد تلقى فى القصة سوى المحب والحبيبة والرقيب ، ثم الواسطة بين الحبيبين واشارة مختصرة لحبيبة سابقة للبطل ، أوردها المؤلف على سبيل ابراز صفات الحبيبة الحالية ، وليس لرغبة قوية منه فى

تصوير شخصيتها وتقديمها لنا . بل اننا لو شئنا أن نتعرف على المجتمع الذى يضطرب فيه بطلا القصة ، وتتبين خصائصه المميزة له عن سائر المجتمعات — لما استطعنا أن نحصل على شىء ذى بال . كل ما نستطيع أن نقرره على سبيل اليقين انه مجتمع متحفظ فيما يخص علاقة المرأة بالرجل ، وأن شئون الغرام فيه تدار من وراء ستر . أما أين يقع هذا المجتمع من بلاد الشرق — أو متى تجرى وقائع القصة ، فأمران لا يفتينا فيهما المؤلف صراحة وانما علينا أن نتلقف اشارة عابرة الى ممثل سينمائى مشهور ، أو ضاحية من ضواحى القاهرة لنعرف أن أحداث القصة تجرى فى ثلاثينات القرن الحالى ، وفى عاصمة مصر .

وليس مصادفة — فى هذا الصدد — أن نجد المؤلف يقطع من قصته ستا وستين صفحة قبل أن يدلى الينا باسمى بطليه — فليس بالأمر البالغ الأهمية عنده أن يتجسد موضوعه فى شخوص لها صفات بعينها وعلامات مميزة وأسماء وانما الذى يهمه فى المحل الأول أن يصور الموقف الذى تجد فيه هذه الشخوص نفسها ويتأمله تأملا متصلا من زوايا عدة . بل ان المؤلف ليمضى أحيانا فى تجريد

موضوعه حتى ليختزل التفاصيل التى لا غنى عنها لرسم الشخصية وتنميتها ، وتطوير حوادث الرواية اختزالا غريبا ، وذلك عن طريق التعميم ، فبدلا من أن يصف موقفا مدويا حدث فيه صدام بين همام وسارة ويستغل هـذا الوصف لمزيد من ربط القارىء بموضوع الرواية ، كما يستخدمه فرصة لاظهار براعته الفنية ، نجده يختزل هذا الموقف المبشر اختزالا مؤسفا فيقول :

« وتلا هذه المحاورة منظر من مناظر المسابقة فى الايلام والتبكيت والغضب والاغضاب . قال فيه وقالت ، وتمادى فيه وتمادت ، وباح فيه وباحت ، وخرجت من المنزل حانقة لا تودع ولا تسلم ولا تعد بلقاء مؤجل ولا بلقاء سريع » .

ليس هذا شأن الكاتب الذى يريد أن يجسد موضوعه ويخلقه خلقـا . وانما هو مذهب الذى لا يهمه من هـذا الموضوع سوى خطوطه العامة ، والأفكار والتأملات التى يمكن تداولها فى داخل هذه الخطوط .

* * *

ولنلق الآن نظرة فاحصة على هذا الموقف الواحد الذى تتألف منه سارة : موقف الجسد الحى والعقل المحب .

من المهم لكى ينجح المؤلف فى تصوير هـذا الموقف تصويرا فنيا مقنعا ، أن تستوى أمامنا « سـارة » قوية قادرة ، فهى الصنم الجميل الذى يعبده العقل ، ان قام على قدميه قامت الرواية ، وأصبح لها وجود وان لم يفعل فلا شئ ينقذ « سارة » من البوار .

لهذا ينفق العقاد جهـدا فنيا كبيرا فى تقديم شخصية سارة لنا . يحكى لنا طرفا من حياتها قبل أن يعرفها همام ، ويصف وقائعها معه ، وتصرفاتها بازائه ووسائلها لاستجلاب رضاه ويطنب فى ايراد نوازعها المختلفة المتعارضة ، ويقارنها بغيرها من النساء وخاصة « بهند » التى تقع منها عـلى الطرف الآخر المناقض . ثم يتبع هذا كله بحيلة فنية ناضجة وأخرى ساذجة ليطلعنا على ما يدور فى داخل نفسها من عواطف وأهواء وأخيرا بربطها بتاريخ التطور البشرى كله . وخاصة بتطور وظيفة المرأة وموقفها من الرجل ، لكى يمد قامتها الى الماضى ، كما يمدها الى الحاضر ولكى تكتسب صفة الرمز والمعنى العام الى جوار قيمتها الفردية كامرأة بين النسـاء .

فأما الوصف الخارجي لسارة فانا نعلم منه تفاصيل كثيرة عن صفاتها الجسدية فهى « جميلة : جميلة لا مراء ، ليست أجمل من رأى « همام » فى حياته ولا أجمل من رأى فى أيام فتنته وشغفه ولكنها جميلة جمالاً يحتفظ بغيره فى ملامح النساء » « فلو عمدت الى ترتيب ألف امرأة هى منهن لنظمتهن واحدة بعد واحدة فى مراتب الجمال المألوف ، ونحيت « سارة » عن الصف وحدها .. وان كنت لا تنكر — ولا تبالى ان تنكر — انها تأتى بعد مئات » .

ولون سارة كالشهد المصفى، وعيناها نجلاوان وطفاوان ، وفمها فم الطفل الرضيع وذقنها كطرف الكمثرى الصغيرة ، وجسمها بض وجيدها كأنه الحلية الفنية تنسجم بين الوجه النضير والجسم الغضير .

وهى حزمة من أعصاب تسمى امرأة . استغرقتها الأنوثة فليس فيها الا أنوثة . ولعلها انثى ونصف انثى لانها أكثر من امرأة واحدة فى فضائل الجنس وعيوبه .

هذا بعض ما يجىء به « العقاد » من وصف خارجى لسارة . اما وصفها من الداخل فان الكاتب يراوح فيه بين الوصف التقريرى المباشر لما يدور فى نفس « سارة » من

عواطف وأفكار وبين الوصف الفنى الناضج لهذا الذى يملأ تلك النفس الحية .

فمن أمثلة الوصف التقريرى — وهو الغالب على الرواية — قوله :

« عاشت .. تنظر الى خطايا الأديان نظرة المرأة الوثنية التى نشأت قبل أن ينشأ الأنبياء فهى ليست كالمتدينة التى خامرها الشك فى دينها ، ولكنها كالمرأة التى لم تتدين قط ولا قبل لها بالتدين .. ومثلها كمثل الطفل يأكل الحلوى خلسة ان لم يأكلها جهرة ، وآباؤه مع ذلك هم الملومون لأنهم منعوه ، وليس هو بالملوم لأنه اختلس ما لابد من اختلاسه .

« ليست غواية الجسم عندها كجوع الحيوان يشبعه العلف ولا كضجر المدمن يخدره العقار ، ولكنها كرعدة الحمى وصرعة الفرح الجموح ، يتبعها النشاط والمراح كما يتبعها الاعياء والبكاء » .

وأما الوصف الفنى فان « العقاد » يعطيه تارة شكل الحوار الذكى الدفاق يدور بين « همام » و « سارة » تتحدث فيه الأخيرة باستفاضة عن رأيها فى الأشياء عامة ،

وفى الموضوع الذى يهمها بصفة خاصة ، وهو علاقة الرجال بالنساء .

ومن أبرع أمثلة هذا الحوار وأقدرها على اعطائنا صورة من نفس سارة ما يدور بينها وبين « همام » فى مشهد اللقاء الأول بين الحبيبين فى بيت « ماريانا » ، فى الفصل المعنون : « كيف عرفها » .

هنا نجد سارة المرأة الغزلة ، الصائدة ، التى توهم الرجل بأنه هو الذى يجرى وراءها ويسعى الى قنصها ، وواقع الأمر أنها هى التى تنصب الشباك ، وتتهيأ لاستقبال الفريسة . ان هذا الفصل يعد واحدا من أمتع فصول الرواية ، وأكثرها قربا من روح الموضوع ، موضوع الحب المتحضر يدور بين رجل وامرأة يجعلان منه طرادا ولعبا ، وشغلا للعواطف البشرية بما لا يشغل حقا ، وان كان يقى من الركود والجمود .

وينتهى هذا الفصل بلمسة فنية ساحرة هى أبلغ من عشرات من صفحات الوصف التقريرى فى الدلالة على طبيعة سارة الغزلة . فها هو ذا الطراد بين البطلين قد اتصل برهة وها هى ذى نهايته تبين الأفق . فلقد استبد الشوق بهمام

ودفعه دفعا الى تقبيل « سارة » التى لم يمض على تعرفه بها سوى دقائق . فماذا ترى البنت فاعلة ؟

جلس « همام » مأخوذا بما حدث ، يتوقع ماذا تكون الكلمة الأولى التى تلفظها الفتاة : أتشتم ؟ أتصطنع الغضب ؟ أتنطلق الى المنزل ؟

انها لا تفعل هذا ولا ذاك ، ولا ذلك . ان رد فعلها أصيل مبتكر ، وجرىء ، جرأة نفسها واصالتها .. لقد بهتت برهة ، ثم أرادت أن تقول شيئا لابد من أن يقال ، فرددت فى صوت خافت :

« لقد آذانى شاربك الطويل ! » .

وتارة أخرى يلجأ العقاد الى حيلة فنية بها شىء كثير من النضوج ، يستخدمها وسيلة لتصوير سارة من الداخل . وأعنى بها المسرحية القصيرة التى يؤلفها حولها « همام » ويجعل « سارة » البطل الوحيد فيها ، ويحيل فيها كل صفة من صفات سارة المتعددة الى شخصية نسائية تحمل اسم « سارة » ثم ينشىء بين هذا الحشد الكبير من « السارات » حوارا ذكيا طريفا تتبين فيه جوانب سارة الكثيرة المتناحرة .

ان هذا المشهد الطريف هو الترجمة الفنية الناضجة .

لعبارة تقريرية جاءت قبلا على لسان همام . فهو فى الفصل المعنون « الرقابة » يصف « سارة » بأنها « هذا العالم الحاشد من النساء لأن كل لحظة من لحظاته معها تمده بنسخة منها قلما تختلط بأخواتها » ..

وتارة ثالثة يستخدم « العقاد » الحيلة التقليدية — حيلة ارسال الرسائل الى المحبوبة لكى يدخل قراءه الى صميم نفس « سارة » ويدلى عنها ببعض المعلومات فى ذات الوقت .. انه فى الرسالة التى يجعل « همام » يرسلها الى « سارة » يحلل نفس البطلة ويعظها ويبصرها بالمصير المؤلم الذى لابد هى منتهية اليه ، ثم يفاجئنا بشىء لم نكن نعلمه من قبل وهو أن سارة أم ، الى جوار أنها حبيبة ، وأنها زوجة قد فشلت وانسانة معذبة حرمت « أنس القرابة الشفيقة وحنان الأم الرءوم ومعيشة الزوجة الهانئة ، فخسرت السعادة وأفسد عليها اليأس عاطفة الرحمة والاخلاص » ..

فهذا جانب آخر من جوانب نفس « سارة » . الجانب الجاد الذى تبرق فيه دموع العين ، وتظلم غرفات القلب .. يمر « العقاد » بهذا الجانب مرورا عابرا فى هذا الفصل ، ثم يعود اليه مرة أخرى فى الفصل المعنون :

« من هى ؟ » فيواصل الحديث عن أسباب شقاء بطلته . انها خابت فى الزواج فشقيت ، ولجت بها الشقاوة حين كفرت بصداقة الصديقات فعاشت فى عالم قد أقفر من جنس حواء الا من منافسة أو عاذلة رقيبة ، ولم يبق فيه الا الرجال .

لا غرو أن « سارة » أنثى ولا شىء آخر ولا جرم آن أنكرت على المرأة كل تقدم يخرجها من لعبة الأنوثة والحب ، وراحت تغير من صورة راقصة وجدتها عند همام فلا تستريح حتى تمزقها شر ممزق ، واتقنت فنون الغزل ، وألوان الكر والفر طلبا لود الحبيب ورغبة فى استجلاب رضاه .

ان جانب الأنثى الصائدة الخالدة فى شخصية « سارة » هو الذى يحظى عند « العقاد » بمعظم الاهتمام ، وهذا أمر طبيعى ما دام موضوع روايته هو الحب .. الحب مجردا من قيود الزمان والمكان .. الحب منظورا اليه على أنه لعبة دائمة لا تفنى ولا تتجدد .

ان الكاتب يستغل هذه النغمة فى روايته ، ليعمق من نظرته الى « سارة » وليرسم لها صورا فنية فاتنة حقا ،

أجدرها بالذكر الصورة التى نجدها فى الفصل المعنون : « الرقابة » .

دخلت « سارة » على همام وهو مغضب منها ، فلم تزل تشاغبه وتناوشه حتى انفثأ غضبه وعادت تبدو أمام عينيه فاتنة لا دافع لفتنتها كما كانت دائما . ودخلت سارة الحمام، وتركت همام يناجى نفسه ، ثم خرجت :

« تتهادى وتنفض شعرها كما تنفض الفرس الكريمة عرفها ، واذا هى أمام المرآة مصقولة ندية كالثمرة الناضجة فى شعاع الفجر البليل .. وكالشيطان ! » .

هنا ينظر اليها « همام » فيرى فيها حواء الخالدة ويتبين أن موقفه من غوايتها له هو موقف خالد خلود الانسانية :

« منذ الأزل وقفت هذه الفتنة الى جانب ووقف الى الجانب الآخر حكماء الأرض وهداتها ومشرعوها وأصحاب النظم والدساتير فيها ، وقالت هذه الفتنة كلمتها ، وقال الحكماء والهداة كلمتهم .. » .

فكم مرة سمع الناس صوت الفتنة وكم سمعوا صوت الهداية ؟

ان سارة اذن ليست مجرد امرأة غزلة متقلبة الطباع وليست حشدا من النساء وحسب بل هى كذلك المرأة

الأزلية ، المرأة التى تعلمت الحب والكذب والخوف والاحتيال عبر آلاف السنين ، يسرها ان تصنع الشىء وتخفيه ، ولو لم تكن بها حاجة الى صنعه ولا اخفائه .. انها تخاف وتكذب وتحتال ووراءها عشرون ألف سنة من التراث .

بمثل هذه الوسائل الفنية المتعددة يصور لنا « العقاد » سارة ويبينها ويرعاها حتى لتستوى على قدميها أمامنا — صورة بارعة أخاذة للمرأة الفائضة الحيوية ، ولعلها أبرع وأنجح ما صادفت فى أدبنا العربى الحديث .

شىء واحد فقط يعيب هذه الصورة الفاتنة ويقلل من جمالها ، ذلك هو اصرار الكاتب على أن يظهرها فى غير موضوع فى صورة المرأة المبتذلة ، التى لا يكاد الرقيب يغفل عنها لحظة ، حتى تذهب فتضاجع من شاءت لها الشهوة أن تضاجعه من الرجال .. فهى فى الفصل المعنون : « علاج الشك » لا تعصم جسدها أيام غياب حبيبها عنها ، أثر غضبة من غضباته الشهيرة ، وهى فى « مضحكات الرقابة » تقصد الى حى من الأحياء فيتهمها حبيبها بأنها قد تكون ذهبت الى مخدع من مخادع الغواية أو لزيارة صديقة من الصديقات

كلا الاحتمالين معقول ، لا يرجح أحدهما على الآخر الا التخمين الصرف !

انني أناقش هذه النقطة — فى المحل الأول — على أساس فنى صرف — فان جانب المرأة المتهتكة فى شخصية «سارة» يتنافر تنافرا شديدا مع باقى الجوانب ، التى تشير كلها الى أمرأة غزلة محبة ، مناوشة ، ذكية ، جديرة ، بالحب والاعجاب .

وقد كان أدعى الى نجاح الصورة ، وحسن تأثيرها الفنى فى النفوس ، لو حذف « العقاد » هذا الجانب فى شخصية بطلته — وهذا بفرض أنه كان ينقل عن الواقع حين رسمها . وليس فى هذا الطلب شطط ما ، فلا ريب أن « العقاد » قد حذف وأضاف كثيرا مما كان يضمه الواقع ، قبل أن يقدم لنا شخصية « سارة » فى روايته . لا ريب أنه قد فنن هذه الشخصية وأضاف اليها من ذاتيته ، وخلع عليها من روحه وأفكاره حتى انتهت الينا فى صورتها المقنعة الحالية .

ولا تكاد سارة تستوى على قدميها أمامنا ، حتى يتلقفها شىء آخر — غير اتهام التبذل — يضربها ضررا لا شك فيه ، وان لم يبلغ فى خطره عليها حد التشويه ، كما يفعل التبذل. ذلك هو موقف حبيبها « همام » منها .

ان « همام » ينظر الى « سارة » نظرة مركبة يبدو فيها واضحا نظرة السيد المالك لبعض متاعه ، ونظرة الفيلسوف الذى تملكه الفكرة وتغلبه على كل ما عداها بما فى هذا عاطفته وقلبه ، ونظرة العاشق المستظرف دون ظرف كبير فى طبعه ، ونظرة الرجل الواثق بنفسه وبرجولته الى حد الغرور .

واحدى النتائج الفنية لكلهذا التداخل هو أن أسلوب المقالة التقريرية يسود كثيرا من صفحات « سارة » . وأوضح ما تكون هذه الظاهرة فى الفصل الذى يحمل عنوان : (وجوه) فان الصفحات الثلاث الأولى فى هذا الفصل هى فى الواقع مقالة صريحة عن النفاق وتعدد صور المنافق ، ترد فيها آراء للكاتب عن « نابليون بونابرت » ، و « جمال الدين الأفغانى » ، وأب مشهور من معارفه له خمسة أبناء ذكور ! ولا يربط هذه الصفحات الثلاث بالرواية سوى علاقة واهنة هى أن « سارة » — هى الأخرى لها وجوه متعددة ، والسبب الحقيقى فى تضمينها الرواية هو أن رغبة الكاتب فى التعبير العقلى عن نفسه تغلب الفنان فيه ، فيصر على أن يورد فى عمل فنى معلومات وأفكارا غير

متمثلة فنيا ، تضر ولا تنفع ، وان كانت تنفس عن الكاتب وتريح أعصابه !

وتتيجةأخرى هى أن الدور الذى قد كان ينبغى لهمام أن يلعبه فى الرواية — دور العاشق الظريف ، الرشيق العبارة ، الحاضر البديهة ، الدائم النكتة ، وهذه صفات العاشق التقليدية فى موضوعات الغرام والطراد والصيد والصائدات — هذا الدور يتأثر كثيرا من الحاح الفكرة الفلسفية على « همام » وتجميدها لعاطفته . كما يؤثر فى نقاء فكاهته — وعنده منها قدر ملحوظ — أسلوب بدوى متحجر يستخدمه فى التعبير عن نفسه ، ان صح استعماله فى لغة السرد فلا يمكن بحال قبوله حين يدور الحوار بين الحبيب والحبيب .

أضف الى هذا أن اعجاب همام بنفسه ، وعبادته لذاته — يجعلانه يبدو فى غير موضع ، ثقيل الظل كما يفصلانه عن حبيبته الى الحد الذى يصبح فيه المحب مراقبا لمحبوبته ، ناقدا لها ، بدلا من أن يلعب واياها الدور الذى تفرضه عليهما طبيعة الموضوع .

ان « همام » فى رأى نفسه شخص عظيم ، ومكان

حبيبته منه ينبغى أن يكون عند قدميه وطبيعته وأخلاقه أشياء عظيمة خالدة ، يجدر بالحبيبة أن تتكشفها ويندى جبينها بالعرق فى استكناه أمرها ، حتى اذا وصلت اليها آخر المطاف ، سكنت اليها ، ونعمت بها وأصبحت خير عوض عما لاقته من عناء .

ولعل خير تعبير عن هذه الظاهرة فى نفس « همام » — ظاهرة الاعجاب بالنفس حتى العبادة — ما نجده فى واقعة الفضيحة التى أوشكت أن تهدد سارة اذ خرجت وهمام لتتنزه فى احدى العربات ، فهاجمها رجال البوليس، وأوشكوا أن يقتادوها الى المخفر ، لولا أن انقذها همام بحكمته وبعد صوته .. اذ ذاك « تطامنت فى حضنه تطامن الفرخ فى حضن أبيه ، وهمست تحت أذنه وهى تمسح خدها بخده : ما أسعدنى بجوارك ، سيدى ومولاى .. » .

وعرف « همام » من بعد أنها استكشفته وطبعته فى صفحة المحاكاة ، وتمثلته فى نفسها تمثلا كاملا فطابت نفسه ورضيت !

الحق أننا لولا شخصية « سارة » والصورة الفاتنة

التى يرسمها لها « العقاد » فى روايته ، لقل اهتمامنا بهذا العمل الى حد كبير .

انها هى التى تنقذ العمل من أن يكون مجرد دراسة تقريرية جافة لموضوع الحب والغيرة والشـك ، وهى وحدها التى تبقى فى ذاكرتنا بعد أن نقرأ الرواية وتمضى على قراءتنا لها أيام وسنون .